المقتطف

الجزء الخامس من السنة الثالثة عشرة

١ شباط (فبراير) سنة ١٨٨٩ = ١ جمادى الثانية سنة ١٣٠٦

آراء الناس في النفس

سنأتي في هذه المقالة على اشهر الآراء التي ارتآها المتقدمون والمتأخرون في حقيقة النفس اجابةً لكثيرين من القراء الذين طلبوا منا الوقوف على ذلك فنقول:

يرى الانسان اباهُ حيًّا يُرزَق ثم يتولاهُ المرض والضعف فيمسي جسمًا لا حراك به ثمَّ لا يتكلم واذنٌ لا تسمع وعينٌ لا تبصر فيحكم انهُ كان فيهِ شيءٌ يحرّكهُ ففارقهُ. وينام هو فيحلم انهُ طارد الصيد في السهول والنجود فاصاب منهُ الشيء الكثير او غزا الاعداء فاثخن فيهم وفرّقهم ايدي سبا او رأى ارواح اخوانهِ الذين طوتهم الارض وابلت عظامهم فعانقهم عناق الاحباء وجدّد معهم عهود الإخاء. ثم يستيقظ في الصباح فيجد انهُ لم يزل في خبائهِ والباب مغلق والكلب بالوصيد فيُخيَّل لهُ ان فيهِ شيئًا يخرج منهُ وقت المنام فيصيد ويغزو ويقابل ارواح اخوانهِ ثم يعود الى بدنهِ. وهذا في ما يُظَن اصل الاعتقاد بالانفس والارواح وانها هي نفس الاخيلة التي تزور الناس في المنام

وحتى يومنا هذا يعتقد الصينيون ان النفوس تفارق الابدان في ظلام الليل وتطوف في الارض وذلك سبب ما يرى من الاحلام والرؤى ويقولون ان نفس احد امرائهم كانت تطوف في احدى الليالي فتجسم على جسم وحش ضارٍ وافترسهُ فلما عادت النفس ولم تجد الجسد رأت جثة مسكين اعرج فدخلت فيها ومن ثم صار ذلك الامير يمشي في زيّ المسكين ويتوكأ على عصاهُ. ويعتقد اليابانيون انهُ اذا أُوقظ الانسان بغتةً مات لان نفسهُ تكون بعيدة عن بدنهِ فلا تجد فرصة كافية للعَوْد اليهِ ويصفون

النفس بانها جسم صغير مستدير . والظاهر ان اليونان والرومان كانوا يعتقدون شيئًا من ذلك فقد ذكر بلينيوس في تاريخهِ الطبيعي ان نفس هرموتيمس الذي تقمّص فيهِ فيثاغورس كانت تفارق بدنهُ حينما ينام وتذهب الى البلدان البعيدة فتقف على غرائب الاخبار ونوادر الحوادث

والاعتقاد بمفارقة النفس للجسد وقت النوم شائع الآن في اواسط افريقية حتى اذا استيقظ انسان ويهِ ألم في عضوٍ من اعضائهِ قال ان نفسهُ كانت طائفة على جاريتهِ عادتها فالتقت بها نفس اخرى وضربتها فالمتها . وقد بلغنا ان كثيرين من اهالي صعيد مصر يعتقدون بان نفوس الاولاد تفارق ابدانهم ليلاً وتدخل في ابدان القطط وتجول في بيوت الجيران تأكل طعامهم وتنقل اخبارهم اوان الاولاد انفسهم يتحيلون الى قطط تطوف البيوت . وهذا اعتقاد اهالي جزائر فيجي ايضًا وعندهم انهُ يمكن احياء الميت بمناداة نفسهِ التي فارقت بدنهُ فتعود اليهِ

وعند الصينيين ان النفس تفارق البدن وقت المرض وتعود اليهِ وقت الشفاء ولذلك فكثيرًا ما يرى الوالدون يفتشون عن نفوس اولادهم المرضى ويتوسلون اليها لتعود الى ابدانهم . ورأى السر جون لبك بعد طول البحث ان الاعتقاد بمفارقة النفس للجسد وقت النوم شائع عند اكثر شعوب اسيا وافريقية واميركا وكان شائعًا عند اهالي اوربا الاقدمين

وكثيرون يعتقدون ان النفس تتخذ صورة حيوان حينما تفارق الجسد والاكثرون منهم يعتقدون انها تتخذ صورة فارة . وكان هذا اعتقاد الجرمانيين عمومًا في الازمنة السالفة وعندهم لذلك قصص كثيرة يضيق المقام عن سردها . وغيرهم يسمي المجرّة درب الفيران لاعتقادهم ان نجومها نفوس الاموات التي اتخذت صوَر الفيران . ويظن احد العلماء ان ما يجدهُ الانسان في نفسهِ من الاشمئزاز عند رؤية الفيران موروث من اسلافهِ الذين كانوا يعتقدون ان الفارة نفس شخص مات اثمًا

وغيرهم يعتقد ان النفس تتخذ صورة طائر حينما تخرج من البدن والظاهر ان العرب كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد ويسمون الطائر المذكور بالصدى ومنهُ قصة ليلى مع معشوقها توبة في قولهِ

ولو انّ ليلى الاخيليّة سلّمتْ عليّ ودوني جندلٌ وصفائحُ
لسلّمتُ تسليم البشاشة او زقا اليها صدًى من جانب القبر صائحُ

والشعوب المسماة بالهندية الاوربية تسمي المجرّة طريق الطيور اي طريق النفوس . واهالي الصين ينصبون امام بيت الميت ثلاثة طيور على ثلاثة اعمدة في اليوم الحادي والعشرين من موته لكي تخطف روحهُ وتطير بها الى الفردوس . وذكر بلينيوس ان روح ارستياس طارت من فمه في شكل غراب . وكثيرون من المتوحشين يأتون بحمامة الى المحتضر ويطلقونها حالما تفارق نفسهُ بدنهُ لكي تخطفها وتطير بها

وقد شاع من قديم الزمان الاعتقاد بتعدُّد النفوس فقال المصريون القدماء ان في الانسان نفسًا وخيالاً وعقلاً ووجودًا وحياةً . وقال العبرانيون ان فيهِ نفسًا اي حياة حيوانية وروحًا اي حياةً بشريةً ونسمةً اي نفسًا روحيةً الهيةً . ويفرق الهنود الآن بين نوعين من النفس يسمون الواحدة نَفَس الله والثاني نَفَس الحياة . وقسم افلاطون النفوس الى ثلاث وقسمها ارسطو الى خمس وسيأتي تفصيل ذلك

ومعنى النفس في كثير من اللغات الظل او الخيال او القلب او الدم او النَّفَس او الريح ومن هذين الاخيرين النفس والروح في العربية . وعليهِ فالاعتقاد الاول والابسط في النفس انها مادّة كالجسد ولكن نوع مادتها الطف من نوع مادتهِ وهذا كل ما يدركهُ المتوحشون الآن . والظاهر ان البشر لم يقولوا بوجود شيء غير ماديّ حتى قام فلاسفة اليونان وجرّدوا من الموجودات المادية موجودات غير مادية وهم اوّل من قال ان النفس غير مادية ولم يتصلوا الى ذلك دفعةً واحدة بل رويدًا رويدًا . وكان فلاسفتهم الاقدمون يعتقدون ان العناصر اربعة التراب والماء ومنها تكوّن عالم الاجساد والهواء والنار ومنها تكوّنت الاجرام السموية وعالم الارواح او النفوس . وزاد ارسطو عليها الاثير وخصهُ بعالم الارواح ولكنهم لم يعتقدوا ان النفوس يمكنها ان تكون وحدها مجرّدة عن الاجساد . والذين اعتقدوا بالخلود منهم اضطروا ان يعتقدوا بالتناسخ او التقمُّص اي ان النفس تخرج من جسد وتدخل في آخر الى ما شاء الله

واوّل من قال ان العناصر اربعة امبيدقليس الذي قام في القرن الخامس قبل المسيح وقال انها تحت استيلاء قوتين المحبة والبغضة الاولى تجمعها والثانية تفرقها . وقال ديوجنس ان النفوس هواء وديوفريطس انها ذرات صغيرة مستديرة دائمة الحركة وفيثاغورس انها نوع من المدد وقال بعض تلامذتهِ انها ذرات صغيرة مالئة الهواء

واشهر مذاهب القدماء مذهب افلاطون ومذهب ارسطو اما مذهب افلاطون فمدارهُ وجود صوَر اصلية ازلية وجدت قبل وجود المادة . فنظر المكوّن الاوّل الى هذه الصوَر وصاغ

الهيولى بحسبها وكان عليهِ ان يقاوم قوَّة الضرورة التي كانت تحرّك دقائق المادَّة حركات غير منتظمة فتغلب عليها واوجد النظام من التشويش . وعند افلاطون ان الكون نفسهُ جسم حيٌّ لهُ جسد ونفس ونفسهُ هي سبب ما نراهُ فيهِ من الحركة . ومقرُّ الآلهة في محيط الكون ومقرّ الحيوان والنبات في مركزهِ وان دماغ الانسان عالم صغير فيهِ النفس الخالدة وهي فيهِ بمثابة السلطان . وفي الجسد نفسان اخريان غير خالدتين الاولى مقرها في الصدر وهي علَّة القابلية للطعام . (ولعلَّ اصطلاح عامتنا من تسميتهم القابيلة بالنفس مأخوذ من ذلك فانهم يقولون فلان ما لهُ نفس لهذا الطعام ويريدون بذلك ان ليس بهِ قابلية لهُ .) وهاتان النفسان تقاومان النفس الاولى وتزعجانها . وكان يذهب الى ان النفس لا تنفصل عن الجسد والى ان نسبتها الى الصوَر الازليَّة او النفوس العليا نسبة الجسد اليها فهي واسطة بين تلك النفوس واجساد الناس

ولما قام ارسطو درس خواص الاجسام الحيَّة وغير الحية درسًا مدققًا ونبذ آراء من تقدمهُ وعلَّم بوجود اربعة اركان او شروط اولها الهيولى او المادة كالحجر والخشب والنحاس وثانيها الصورة او الهيئة التي توجد عليها المادة . وثالثها العلَّة او المحرك الاول او كل ما يعمل عملاً بحركتهِ كالبذر والماء المخمر والهواء المتحرك . ورابعها الغاية كالاكلة والدفع والشهرة . والشرطان الاولان اي المادة والصورة هما ركنا فلسفة ارسطو وكان يقدم الصورة على المادة بناء على انها الطف من المادة وآكمل واسمى . وهنا مبدأ التجريد في تجريد الصورة عن المادة والمادة عن الصورة ولكنهُ قال ان للمادة الخالية من صورة بالفعل تتضمَّن صورة بالقوَّة . وجعل النفس من قبيل الصورة الفعليَّة وقال انها من صفات المادة او من كمالاتها وانها اوَّل صورة فعليَّة تظهر فيها . والجسد يجهز واحدًا فقط من الامور الاربعة المذكورة آنفًا وهو المادة واما النفس فتجهز ثلاثة وهي الصورة والعلَّة والغاية ولذلك فكل الافعال الحيوية والعقلية هي من نتائج النفس . والنفس على انواع بحسب وظائفها كالنفس الغاذية وهي الحاكمة على الهضم والتغذية والتوليد وفيها شيء من الحرارة السموية لتدفئة البدن الحي . والنفس الشاعرة التي يمتاز بها الحيوان عن النبات . والنفس العاقلة او الناطقة وهي التي يمتاز بها الانسان عن بقية الحيوان . وهنا ناقض نفسهُ بنفسهِ فجعل النفس الناطقة صورة مجردة عن المادة مع انهُ قال قبلاً انها لا تدرك شيئًا بدون المشاعر . ثم انتقل من عالم الشهادة الى عالم الغيب كأنهُ على جناح الخيال وربط النفس الناطقة بعالم الآلهة فجعلها مصدر كل حياة وقوة ونسبها الى تسعين نفس

منفعلة ونفس فاعلة وقال ان الاولى تموت مع الجسد والثانية تبقى خالدة ابد الدهر. ولم يتصل الى هذه النتيجة باستدلال منطقي كما اتصل الى بقية نتائجه بل تحكّم في الامر تحكّماً كأنه بالهام الهي

هذه اشهر مذاهب الفلاسفة الاقدمين وقد بقي مذهب اتباع ابيكوروس الذين انكروا خلود النفس ومذهب اتباع زينون الذين قالوا بماديتها فلا نطيل الكلام فيها

ولما انتشرت هذه المذاهب وكثر اشياعها ظهرت الديانة المسيحية واعتنقها جمهور غفير من فلاسفة اليونان والرومان وبحثوا في حقيقة النفس فذهب بعضهم الى ماديتها وانكر غيرهم ذلك. ولبثت المذاهب تتضارب بين مادية النفس وعدم ماديتها الى ان ظهر اوغسطينوس (٣٥٤ — ٤٣٠) فرق بين المادة والنفس فرقاً تاماً وقال في وصف المادة ان لها طولاً وعرضاً وعمقاً وشيء من ذلك لا يصدق على النفس. وجعل اعتمادهُ في تمييز النفس انهُ يمكن وجودها كلها في كل عضوٍ من اعضاء الجسد متابعاً افلاطون في ذلك. وقال ان النفس ارقى من الجسد لان فيها الحياة والحركة والشعور وليس شيء من ذلك في الجسد الذي فارقتهُ نفسهُ. واستدل على روحانية النفس بادلّة كثيرة منها انهُ يُذخَر في النفس صوَرٌ كثيرة بعضها غاية في الاتساع وبما ان هذه الصوَر غير مادية لانحصارها كلها في دائرة ضيقة فالذي يعيها غير مادّي

ولما فصل بين النفس والجسد فصلاً تاماً وجد صعوبة في ايصال افعال النفس الى الجسد مباشرةً فوسّط بينهما مادة اللطف من الجسد واكثف من النفس وقال انها النور او الهواء اللذان يتخللان كل الاجساد وان النفس تفعل بها مباشرةً وهما ينفعلان بالجسم مباشرةً

اما من جهة خلود النفس فقال ان كل مخلوق لا يمكن ان يكون خالداً بمعنى الخلود الذي يتصف بهِ الخالق سبحانهُ اذ ان بقاء المخلوق في الوجود يتوقف على ارادة الخالق. الاّ ان كل ما نراهُ من التغيرات لا يلاشي النفس بل لا يلاشي المادة ولا يمكن ملاشاة النفس بشيء مخلوق سواء كان مادةً او روحاً ولا يمكن ملاشاتها الاّ بقوتهِ تعالى. واعتمد كثيراً على اشتياق الناس الى الخلود دليلاً عليهِ. وسبق اوغسطينوس الى القول بروحانية النفس غريغوريوس النيسي اخو باسيليوس الكبير (٣٣١م — ٣٩٤) وعلّم ان الله خلق النفس حيّة عاقلة وما دامت متصلة باعضاء الحس فهي حاسّة ايضاً وقال ان التعقل ليس من خواص المادة والاّ لظهر في المادة من نفسها وتصوّرت بهِ المادة على صور

شتى من نفسها وهذا من الادلّة التي يعتمد عليها فلاسفة هذا العصر

وسنة ٤٧٠ ألّف فورتس اسقف رجيوم (بفاليا) رسالة قال فيها ان الله وحدهُ روح مجرّد عن المادة وكل ما سواهُ مادّي فردّ عليهِ القس كلوديان مامرتس واستدلّ على روحانيّة النفس من قول الكتاب ان الله خلق الانسان على صورتهِ ومثالهِ فقال ان لا مماثلة بين الروح والمادة فبقي ان في الانسان شيئًا روحيًا وهو النفس وقال ان النفس غير محدودة في مكان بل موجودة كلها في كل عضوٍ من الجسد على السواء لانهُ يمكن قطع اي عضوٍ كان وتبقى النفس كاملة في الجسد وبما ان الجسم المادي لا يوجد كلهُ في مكانين في وقت واحد فالنفس غير مادّية . واستدلّ على روحانيتها بادلّة أُخرى مثل ادلّة اوغسطينوس وادلّة دكارت الآتي ذكرها

وفي ذلك العصر قام نمسيوس اسقف حمص وألّف كتابًا في حقيقة النفس وتابع افلاطون في روحانيتها وإشاعهُ في بلدان المشرق

ثم ظهر الاسلام وسُئِل النبي عن النفس او الروح فقال "قُلِ الروح من امر ربي" وفسّر البيضاوي ذلك فقال "(ويسالونك عن الروح) الذي يحيا بهِ جسد الانسان ويدبرهُ (قل الروح من امر ربي) من الابداعيات الكائنة بكُنْ من غير مادة وتولّد من اصل كاعضاء جسدهِ او وجد بامرهِ وحدث بتكوينهِ" وفسّر الشهاب "الابداعيات" بما خُلِق من غير مادة . وخلاصة ذلك ان الروح مخلوقة وانها غير مادة وان معرفة كنهها متعذرة على البشر . واكثر فلاسفة المسلمين الذين كتبوا عن النفس تابعوا ارسطو الذي ترجمت فلسفتهُ الى لسانهم وفصلوا فيها تفصيلاً حسنًا . قال ابن سينا في طبيعياتهِ النفس على ثلاثة اقسام الاول النفس النباتيّة وهي الكمال الاول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولّد ويربو ويتغذى . والثاني النفس الحيوانيّة وهي الكمال الاول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيّات ويحرّك بالارادة . والثالث النفس الانسانيّة وهي الكمال الاول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الافعال الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي ومن جهة ما يدرك الامور الكليّة . وللنفس النباتيّة قوًى ثلاث القوّة الغاذية والقوّة المنمية والقوّة المولّدة . وللنفس الحيوانيّة قوّتان محرّكة ومدركة والمحرّكة على قسمين باعثة وفاعلة والمدركة على قسمين مدركة من خارج ومدركة من داخل ولما جاء الى النفس الانسانية اطال الكلام فيها جدًا ومفاد كلامهِ انها مخلوقة وخالدة لا تموت بموت الجسد ولا تفنى بفنائهِ . وتظهر آراؤهُ في النفس في قصيدتهِ الشهيرة التي يقول فيها

هبطتْ اليكَ من المحل الارفعِ ورقاء ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كل مقلةِ عارفٍ وهي التي سفرتْ ولم تبرقعِ
وصلتْ على كرهٍ اليكَ وربَّما كرهتْ فراقكَ فهي ذات توجُّعِ
اذ عاقها الشركُ الكثيفُ وصدَّها نقص عن الاوجِ الفسيحِ الارفعِ
وغدت مفارقةً لكل مخلَّفٍ فيها حليفَ التربِ غيرَ مشيَّعِ
شجعتْ وقد كشفَ الغطاء فأبصرتْ ما ليسَ يدركُ بالعيونِ الهجَّعِ
وتعودُ عالقةً بكل خبيثةٍ في العالمين فخرقها لم يُرْقَعِ
فهبوطها اذ ذاكَ ضربةُ لازبٍ لتكون سامعةً لما لم يسمعِ

وهنا نختم الكلام على آراء الفلاسفة المتقدمين وسنأتي في الجزء التالي على آراء الفلاسفة المحدثين

الهضم والتغذية

قُدِّم علم الابدان على علم الاديان لان الانسان لا تستقيم احواله في دينه ودنياه ما لم يكن صحيح البدن. ولو مُيِّز بين فروع علم الابدان لقُدِّم عليها كلها الفرع المتعلق بالهضم والتغذية لان قوام الجسد وصحته مناطان بهما. ومن الغريب ان اكثر الناس لا يعلمون شيئًا عن الهضم وهو اقرب اليهم من بينهم وجارٍ في ابدانهم في كل لحظة من حياتهم وعليهِ مدار صحتهم ومرضهم وقوتهم وضعفهم وسرورهم وغمهم. وقد يُظَن لاول وهلة ان عدم معرفة الانسان بنواميس الهضم وعدم اهتمامه بها لم يضرَّه ولن يضرَّه. كما ان الحيوان الاعجم يأكل طعامهُ ويهضمهُ ويغتذي به بل يتناول ما يفيدهُ ويتجنب عما يضرهُ وهو لا يدرك شيئًا من نواميس الهضم ولا من خواص الاطعمة. ويظهر في بادئ الرأي ان هذا الاعتراض لا يمكن ردُّهُ وان في الجسم الحي قوًى طبيعيَّة ترشدهُ عفوًا الى الاكل والهضم والتغذية ولكن الناقد البصير يرى ان هذه القوى لم تبلغ ما بلغت اليهِ الاَّ بعد ان عبثت بحياة ملايين لا تحصى وحتى الآن لم تبلغ درجة الكمال فكم من رجل يموت ضحية البطنة وكم من ولد يتجرَّع السم في الدسم ولقد صدق من قال ان اكثر الاوصاب من الطعام والشراب. لذلك كانت معرفة نواميس الهضم والتغذية لازمة من باب صحي لسياسة البدن